ضنائنُ الزمان

قال أبو عثمان الجاحظ[1]: (**لا تكونَنَّ لشيءٍ مما في يدك أشدَّ ضِنًا ولا عليه أشدَّ حَدَبًا منك بالأخ الذي قد بلوتَه بالسَّرَّاء والضَّرَّاء، فعَرَفتَ مذاهبه وخبرتَ شِيَمَه، وصحَّ لكَ غَيْبُه، وسَلِمَتْ لك ناحيتُه؛ فإنه شقيقُ رُوحِك، وبابُ الرَّوحِ إلى حياتِكَ، ومُستمَدُّ رأيك وتوأمُ عقلك. ولستَ منتفعًا بعيشٍ مع الوَحْدة، ولا بد من المؤانسة. وكثرةُ الاستبدالِ يهجُم بصاحبه على المكروه. فإذا صفا لك أخٌ فكن به أشدَّ ضِنًا منكَ بنفائسِ أموالك، ثم لا يُزهِّدنَّك فيه أن ترى منه خُلُقًا أو خُلُقَين تكرهُهما؛ فإنَّ نَفْسَكَ –التي هي أخصُّ النفوس بك– لا تعطيك المَقادَة في كلِّ ما تريد، فكيف بنفس غيرك! وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثرُه، وقد قالت الحكماء: «مَن لك بأخيك كلِّه»، و«أيُّ الرجال المهذب»**).

***

الغريب:

ضِنًّا: حرصًا وشحًّا، ويصح فتح الضاد. **حَدَبًا**: عطفًا وعنايةً. **شِيَمِه**: الشِّيم جمع شيمة وهي الخلق. **الرَّوح**: الراحة. **نفائس**: جمع نفيسة وهو الثمينة. **تعطيك المقادة**: يُقال: أعطاه مقادته أي انقاد له.

البيان:

هذه القطعة الأدبية تشتمل على نصيحة صادقة في الصبر على الإخوان، ادِّخارًا لهم لنوائب الزمان، فإنَّ الواحد من هؤلاء من أثمنِ ما يحصِّلُه الإنسان في حياته، ثم هو يمتدّ ذخرًا للمرءِ بعد ذهابه ووَفاتِه، فليس من الحكمة في شيء أن يفرِّط المرء بهذا الكنز لأجلِ خُلُقٍ أو خُلُقين تأباهما نفسه! وإنما يكفيه لو أحسنَ النظرَ أن يكون له من أخيه أكثرُه!

---

(١) انظر: هو أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، وغلب عليه لقب (الجاحظ) لجحوظ عينيه وبروزهما حتى صار لقبه أشهر من اسمه، من كبراء أئمة البيان والأدب، وعُرِف بخفة الروح وحلاوة الدعابة، وكان من بحور العلم الواسع والثقافة المتشعبة يضربُ في كل فنٍّ بسهم، وقد شُغِفَ بالكتب جمعاً وقراءة حتى قال فيه بعض معاصريه: **(لم أر قطُّ ولا سمعتُ من أحبَّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنَّه لم يقع بيده كتاب قَطُّ إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان)**، وعلى حسن بيانه وفصاحة قلمه وسعة اطلاعه فقد كان معتزلياً من رؤوس البدعة والضلالة في زمانه حتى سمي (خطيب المعتزلة)، وكتبه هي مضرب المثل في حسن البيان وجودة التعبير، وقد ترك إرثاً أدبياً ضخماً منه: (البيان والتبين)، و(الحيوان)، و(البخلاء)، ورسائل متفرقةً جُمِع بعضها وطُبع باسم (رسائل الجاحظ). ت:٢٥٥هـ.

ومن لم يصبرْ على أخيه فإن ذلك مفضٍ به لا محالةَ إلى أحدِ أمرين ذكرهما الجاحظ:

الأول: الوِحدة والانعزال، بينما العيش لا يطيب في هذه الحياة إلا بمخالطة الإنسان بمن يشاكله ويؤانسه، وكما قال الجاحظ: **(لستَ منتفعًا بعيشٍ مع الوِحدة، ولا بد من المؤانسة)**.

وكما قال الشاعر:

العِـزُّ في العُـــزْلَةِ لـكنَّه * لا بدَّ من للناس من الناسِ!**

الثاني: كثرة التغيير للأصدقاء والأصفياء، وهذه مَزَلَّةُ قدمٍ تنهك الأرواح وتبدِّد الطَّاقات، وكما قال الجاحظ: **(وكثرة الاستبدالِ تهجم بصاحبه على المكروه)**.

ولا يمكن أن تدوم علاقة بشرية بين اثنين إلا مع اغتفار الهفوات وتجاهل الزلات، فأما من طلب الكمالات واستقصى على إخوانه فقلَّما ثبت بجوارِه أحدٌ، وكلُّ مَن كان كذلك فمآله حتمًا أن يمشي على يَبَسِ الحياة وحيدًا! وكما قال بشار:

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى * ظمئتَ وأيُّ الناس تصفوا مشاربه!**

فعِش واحدًا أو صِل أخاكَ فإنه * مقارفُ ذنبٍ مرةً ومجانبه!**

ثم ذكر الجاحظ معنى بديعًا جديرًا بتسريحه في زاوية التأمل الفَسيحة، وخلاصته أن الإنسان يطلب من نفس أخيه ما لا يطلبه من نفسه التي بين جنبيه! فهذه النفس تحمح عن إرادته أحيانًا، ثم هو لا يملك حيالها في كثيرٍ من الأحوالِ إلا الاستجابةَ والرضوخَ والإصغاء، فإذا كانت النفس التي بين جنبيه خليقة بأن يسوسَها ويداريها ويغتفِر هفواتها، فاغتفار هفوات إخوانه وزلات أصحابه أوكدُ وأولى.